سيكولوجية الإضراب (٢)

بقلم
محمود الراوى

١ — تحليل الدوافع

رأينا فى عدد فبراير الماضى أن الإضراب ليس إلا مظهراً من مظاهر عدم التبيؤ للوسط المضطرب فى حالة الجموع المثقفة ، تماماً كما تصبح الثورة المفتوحة من مظاهر الوعى المشترك فى الجماهير عامة ، وكما تصبح الجريمة والخروج على القانون دليلا على التفاعل الشاذ أمام البيئة فى حالة الشخص الجاهل المفرد .

وسأورد فيما بعد عرضاً للدوافع الأساسية والثانوية التى تسبب ثورة الجماهير ، وقد سبق أن تحدثت عن القيمة التحليلية النفسية لهذه الدوافع وقلت إنها ترجع إلى وظائف (عمليات) نفسية تتعلق بالذات ، إما بطريق مباشر (فقد الحرية الشخصية ، الاستعباد ... إلخ) أو بطريق غير مباشر (جميع الدوافع الشخصية) .

ولا توجد فى حركات الجماهير التى من هذا النوع دوافع جنسية .

وقد قال علماء النفس من قديم إن الحاجة واليأس يدفعان الناس إلى القتال ، وإن الراحة والاطمئنان والرفاهية تجعلهم مسالمين . وكما سبقت الإشارة فى المقال الماضى لا يثور الشخص الرابح وإنما الشخص الفاشل أو الخاسر أو الفقير . كذلك رأينا أن المقارنة من أهم العوامل إن لم تكن أهمها فى إضراب الطبقات المتوسطة المحرومة (أو التى تعتقد أنها محرومة) من امتيازات تتمتع بها طبقات أخرى .

ثورة الذات

لنفرض أن جماعة من الموظفين يقومون بأعمالهم فى قابلية وإخلاص ، غير ناظرين إلى ترقية أو علاوة ، وراضين بحالتهم الراهنة وتبيأوا كما يجب . ثم فى يوم ما تجد هذه الجماعة أن جماعة أخرى من نفس المستوى أو من مستوى أقل قد نالت امتيازات حرمت منها هذه الجماعة المخلصة (أشياء كهذه تحدث كثيراً فى مجتمعنا العصرى

المضطرب ، فى مصر وفى غير مصر) وذلك لسبب أو لأسباب هى أبعد ما تكون عن الكفاءة أو الإخلاص فى العمل . فماذا يكون تفاعلهم حينذاك ؟ لا بد بالطبيعة أن ينقلب التبيؤ رأساً على عقب ، مهما كان تاماً ، ويتبخر الرضاء بالحالة الراهنة ويحل محله التذمر والاحتجاج ... فقد بدأت هذه الجماعة تنتبه إلى عيوب البيئة وبدأت الذات تثور .

ومن العبث فى هذه الحالة إقناع أولئك الناس بأن من المصلحة العودة إلى العمل ...

وماذا يكون تفاعل طائفة من العمال عندما يفاجأون بتخفيض الأجور ، أو تسريح البعض ، أو عند ما يكتشفون أن نقابتهم « تخونهم » وتشى بهم وتثير عليهم رجال البوليس ؟

وتفاعل هؤلاء أو أولئك فى كل حالة هو إظهار لثورة الذات التالية للوعى المشترك .

وإذا تكرر هذا من بضع طوائف نرى الطوائف الأخرى النائمة قد انتبهت إلى الحال الجديد ولاحظت أن فى الثورة على الحاضر بعض الغنم ، وقد تثور بحق وقد تثور بدون حق .

ويسير اليأس جنباً إلى جنب مع الدافع السابق ، ولكن — على نقيض المثالين السابقين — لا تكون ثورة الذات « احتجاج الذكر » بعد وعى مفاجىء وإنما بسبب اليأس ، سواء كان مفاجئاً أو مزمناً .

فالأمل فى الصيرورة صاحب ملك أو فى الوصول إلى مركز ممتاز يعادل أو يقارب مركز الطبقة السائدة ، هو فى ذاته يخفف من حدة الشعور بالبؤس أو الفشل . وإذا فقدت الجماهير مثل هذا الأمل فى الإصلاح (وعلى الأخص إصلاح حالها) فلا بد أن هذا يزيد من اتحادها للعمل على الخروج بالقوة من هوة اليأس السحيقة ، إذ ليس أمر على الإنسان من أن يفقد فجأة الأمل الذى كان يعمل له طويلا .

وفى مجتمعنا المعاصر نجد ما يقرب هذا . ففى كل النظم الاجتماعية المبنية على الديموقراطية الرأسمالية مثلا نرى أن ذوى الثروات الكبيرة يحاولون دائماً مقاومة نمو الثروات الصغيرة أو الناشئة ، وقطع كل طرق الأمل على أصحاب هذه الثروات بمنعهم من الوصول إلى مستوى أعلى .

وهذا بطبيعة الحال يدعو إلى التكتل . وقد سبق أن بينت أن روح التمرد تبدأ فى العادة فى الطبقات المتوسطة لا فى الطبقات الدنيا .

وينطبق على هذا قول راينهاردت :

« إن تركز الثروة لمدة طويلة فى طبقة معينة يعنى تركز القوة أيضاً ، مما يميل إلى تدعيم مركز أصحاب هذه الثروة خصوصاً عن طريق الأدوات الإدارية والقانونية كحق الانتخاب والتعليم والاشتراك فى الأعمال الاجتماعية العامة . وتنتقل هذه المراكز المدعمة بالتوارث جيلا عن جيل ، وتنتج منها فى النهاية جماعة ممتازة بالوراثة . والتاريخ يحدثنا أن مثل هذه الجماعات قد بالغت وغالطت فى طلباتها من المجتمع وإن كانت أقلت من خدماتها فيه ، مما أدى إلى حالة ركود مصحوب بمنع مواهب الطبقات الصغرى من الظهور ، ونقص فى إنتاج جميع الطبقات .

« ولما كانت الطبقات الممتازة تعيش فى بروج لا تستطيع منها أن تعرف حقائق المجتمع بما فيه الطبقات الفقيرة ، فإنها تتجاوز فى مطالبها ومغانمها حدود الخطر ، فتقلب الأوضاع وتجهز المسرح للثورات المدمرة والحروب الأهلية وللاستعمار ، أو الانحلال القومى وهو عملية أبطأ سيراً »(١).

سوء علم الصحة السياسية

إن حسن السياسة ، أو ما قد يمكن تسميته « علم الصحة » السياسى ، يعتمد داخل الدولة الواحدة على إيجاد علاقة مناسبة بين الحكام والمحكومين . ويكون هذا باستعمال عوامل القيادة النفسية الهامة ، وهى ثلاثة : الإقناع ، والإيحاء ، والتذكير بالواجب . فهذه العوامل الثلاثة وحدها كفيلة بإيجاد التفاهم الكافى (الذى ليس من الضرورى أن يكون تاماً) بين الشعوب والحكومات ، وهى أيضاً العوامل التى يستعملها كل زعيم ناجح كما ذكرت فى إحدى المقالات السابقة(٢).

ولعل خداع الرؤساء والحكام ... إلخ ، للجماهير هو أسوأ طرق الوقاية من الاضطراب ، فإن الشعوب لا يمكن أن تخدع ، والجماهير النائمة لا بد لها يوماً أن تستيقظ . وأن الثقة التى يحصل عليها الرؤساء من أول الأمر بمجابهة الواقع والصراحة التامة (مع الإيحاء المصحوب بالتبرير) أفضل مراراً من سياسة الصمت أو تضليل الجماهير . وفى هذا يقول ميرا : « ... لا يوجد الآن مخلوق ليست له نظرة خاصة فى الحياة والسياسة . وكل إنسان يحاول الحصول على المعلومات ممن حوله ، بل ومناقشة

(١) J. Reinhardt : Social Psychology, p, 333, 1939

(٢) م . الروای — (القتل السياسى) . مجلة علم النفس ، عدد نوفمبر ١٩٤٧

الأسباب أيضاً .... وهذا (أى تضليل الجماهير) يشابه النظرية القديمة فى كتم حقائق الجنس عن الأبناء المراهقين ، فهذه الحقائق لا بد أن تصل إليهم مهما غالى الآباء فى الرقابة ومنع المعلومات .

« وبالمثل لا بد أن يأتى اليوم الذى يعرف فيه الناس كل شىء برغم صمت الزعماء السياسيين إذا كان هؤلاء الزعماء يرفضون التصريح باللازم والأساسى من المعلومات »(١).

جنون العظمة

فى كل مكان وفى كل زمن نرى عدداً من الرؤساء المصابين بجنون العظمة . وجنون العظمة لا يحتاج إلى تعريف وأغلبنا قد شاهده ولمسه فى قليل من نظار المدارس وبعض الرؤساء الإداريين فى عدد من الوظائف الحكومية والعسكرية . وهو فى الخارج ليس بأقل شيوعاً عنه عندنا .

وقد يتكون جنون العظمة كحالة باتولوجية مباشرة وقد يكون تعويضاً لمركب نقص سابق أو باق ، وهذا لا يهمنا . ولكن الذى يهم هو أن أمثال هؤلاء المصابين بجنون العظمة يعتقدون بأنه لا يوجد من بين مرؤوسيهم من يجرؤ على الوقوف ضدهم بأى حال .

وهذا الاعتقاد بطبيعة الحال خاطئ إذ ليس فيه حساب للدوافع النفسية والبيولوجية الطبيعية ، من المحافظة على الذات والقدرة على التكتل فى المجاميع ...إلخ) ولكنه قد يسود مع ذلك لمدد طويلة ، وقد تعانى بسببه شعوب بأسرها حينما يحدث فى رئيس حكومة أو دولة . ولكن بقاءه يتوقف على قدرة هذا الرئيس فى أن يزيد عناصر القوة والضغط (البوليس ، الجواسيس ، الجيش ، الطوابير الخامسة والجستابو .. ألخ زيادة غير محدودة بحيث تتناسب تناسباً طردياً مع زيادة النضال الداخلى فى الجماهير .

وهتلر يعطينا مثالا صادقاً لهذا النوع من الرؤساء .

ويقول براون : « إن كل من أصابه مس من جنون العظمة لا بد أن يدفع الثمن غالياً حينما يجد الناس قد تجمعوا ضده فيما بعد »(٢). وأظن أن فى ثورة الطلاب

---

(١) E. Mira : Psychiatry In War, p. 128, 1944

(٢) W. Brown : Psychology & Psychotherapy, p. 150, 1944

والطالبات فى العام الماضى فى معهدين مصريين على رئيس ورئيسة المعهد ، ما يؤيد هذا النوع من التجمع الذى يصفه براون .

ولما كان الأساس فى علاقة الإنسان المتحضر بغيره هو التعاون بدلا من التنافس أو الرغبة فى السيطرة ، فإننا نستطيع أن نفهم السبب فى حالة عدم الاستقرار حيثما مالت الرغبة فى السيطرة (أو جنون العظمة) إلى الظهور — إذ كلما زاد الخوف من « السيطرة » وكلما ازدادت طرقها قسوة ، ازدادت الرغبة فى التآزر والتآمر ضدها على النحو الذى تم شرحه فى الجزء الأول من هذا البحث (عدد فبراير ١٩٤٨) .

الإضراب الإصلاحى

هناك نوع من الإضراب يكون احتجاجاً على حالة سياسية أو حادث سياسى أو اجتماعى معين . وقد يكون الدافع لذلك هو الوطنية ، وقد يكون شعوراً آخر .

والإضراب الذى يلتجأ إليه كحل للمشاكل الداخلية أو الخارجية ، كلفت نظر بعض الطوائف إلى عيوب أو أخطاء خاصة ، أو لإظهار التحدى والتهديد بالقوة والنضال ، قد يتوقف عليه مستقبل طائفة أو طبقة أو شعب بأسره ، إما نحو التقدم وإما نحو الانحلال والخراب . وهو لا يخرج عما سبق بيانه فى المرة الماضية من أنه تفاعل هجومى على البيئة أملا فى تغييرها أو تكييفها .

وهذا النوع من الإضراب الإصلاحى ينظمه فى العادة قواد مفكرون ، يمهدون إليه ويهيئون له الحالة المعنوية عند توابعهم ، واعدين المتمردين بحياة أو مركز أحسن بعد الثورة وزوال عناصر الضيق والتذمر .

والقواد الإصلاحيون هم أفراد ذوو مواهب خاصة وشخصيات شاذة من نوع خاص Schizoid[1] وإن كانت من الوجهة الباتولوجية لا تعتبر شخصيات مريضة . وسمى هؤلاء بالإصلاحيين لأنهم وإن كانوا يخفقون أحياناً إلا أنهم أحياناً أخرى تتوقف عليهم وعلى أعمالهم مصلحة المجموع كما ذكر . وأمثلة هذا النوع أحمد عرابى وجون براون .

وإذا أخفق النوع الإصلاحى فى حركته الإصلاحية أو التقدمية أصبح مثيراً للفتن ومنبعاً للمتاعب .

---

(١) يجب التفرقة بين هذا النوع من الشخصيات Schizoid وبين مرض الفصام Schizophrenia وأغلب العباقرة والفنانين والقواد والمصلحين هم من هذا النوع Schizoid

حالة التذبذب التالية للحروب

لا شك أن الحرب وما يتخللها من قلق الناس على حياتهم وأعمالهم ومصالحهم تسبب تفاعلا عصبياً أو عصابياً عند غالبية الجمهور . وبينما نرى فى أول الحرب شعوراً سائداً بالكره نحو العـــدو نجد فى نهايتها اضطراباً أهلياً (داخلياً) قد يكون مصحوباً بالتبرم أو الكره نحو الحكومة أو أداة من أدوات الحكومة ، وهو نوع من الغضب المزاح كما نرى . وهذا طبعا لا يحدث فى الدول التى تخسر الحرب إذ أن كره الشعب للدول المعادية يزداد ولا يزاح إلى هيئة أخرى .

وفى هذا المجال تجدر بنا الإشارة إلى الأشخاص المتأثرين من الاشتغال فى الجيش المحارب فهؤلاء بعد تسريحهم يجدون منفذاً للدوافع (اللاشعورية) التى تدفع إلى الثورة على النظام ، فى مجال الحياة المدنية ، وبعضهم يستجيب بسرعة لأعمال التمرد وبعضهم قد يدبرها تدبيراً .

الدوافع الثانوية

لا يفوتنى قبل ختام موضوع الدوافع أن أشير إلى بعض الدوافع الثانوية ، وهى قليلة العدد قليلة الحدوث ، رغم أن الناظر غير المتمعن قد يظنها من أهم أو أهم الدوافع ! وسأوردها هنا باختصار .

فهناك الأقلية التى تضرب هرباً من مسئوليات العمل (نوع آخر من عدم التبيؤ) أو التى تفضل أن يتم الإضراب (على يد سواها) حتى تتمتع بفسحة من الوقت غالباً ما تضيع دون فائدة تعود عليها .

وقد يكون الميل إلى الإضراب لا شعورياً هو عبارة عن هروب من العمل الذى يذكر الأفراد بانحطاطهم اجتماعياً أو مادياً أو بالنسبة لرؤسائهم فى هذا العمل .

ولا يجب أن ننسى الأقلية التى تنتهز فرصة استعداد الجماهير فتحرض على الثورة أو الإضراب لكى تشبى بهم طمعاً فى فائدة شخصية . وهذا الانحلال الأخلاقى يوجد فى الاضطرابات والثورات كما يوجد فى كل مجال آخر فى هذا المجتمع المريض ، ومثلهم كمثل الموظف الذى يختلق لرئيسه الأقاويل على زملائه للتزلف إليه طمعاً فى ترقية أو مكافأة أو مجرد الرضا ....

وغير هذا توجد المجاميع الفوضوية التى تكون فريسة الإيحاء الخاطىء من أناس فوضويين ، وقد تتكون الجماعات نفسها من أناس مسالمين سلموا قيادهم الى الفوضويين

وثمة حالة تقرب من حالة هؤلاء ، هى حالة « المضرب العائد » وهو كالمجرم العائد قد تبيأ فى جو الإضراب والتمرد فلا تلذ له الحياة إلا بالمشاكسة وإثارة المتاعب وهذا فى الواقع من السلوك السيكوباتى .

الفساد الدائرى

يقصد بالفساد الدائرى وضع لا تسير فيه الأمور فى الطريق الصحيح . ويتضافر فيه عاملان متضادان يزيد كلاهما الحالة سوءاً ويزيد من حالة الآخر سوءاً كذلك . فمعالجة الفساد بالفساد يترتب عليها فساد أكثر ، إذا عولج من جديد بالفساد كانت النتيجة اطراد الفساد بالتدريج إلى حد غير محدود .

فى محاولة الإصلاح الاجتماعى قد يفلت زمام الجماهير إذا كان الإصلاح يسير بشكل خاطئ . وبذلك يبدأ فساد دائرى لا بد أن ينتهى بالتفاعل من أحد الفريقين غالباً يكون التفوق فيه للفريق الأكثر عدداً والأقدر على استعمال القوة .

٢ — ملخص للدوافع

دوافع سياسية

النضال النفسانى الداخلى (فى الجماهير) :

الحاجة (الشخص الرابح أو المترفه لا يثور)

اليأس . ضياع الأمل فجأة

فساد علم الصحة السياسى (استعمال القوة والضغط والطرق القديمة فى كل الحالات)

تذمر الطبقات . الشعور بالنقص

مركب الحيرة — احتجاج الذكر (النظام والرغبة فى الثورة عليه)

جو عدم الطمأنينة والخوف على النفس (من فقد الحرية ، من اضطراب الأمن ، ألخ ...)

تحقيق رغبة مكبوتة

التذمر من الأجور (هذا نتيجة لتذمر الطبقات)

زيادة ضغط أو إرهاق العمل

اضطهاد الأقليات والتعصب العنصرى

المجتمع الأنانى وازدراء الموهوبين من أبنائه
الاعتقاد الخاطئ . الإشاعات الكاذبة : فيما يختص بـ :
تهديد سلامة الجماعة
الوعود الخلابة التى تتضمن تحقيق رغبة القطيع
تهديد سلامة الحرية الشخصية أو الاعتقاد الدينى أو الطائفى
الاعتقاد بأن الأداة الإدارية عاجزة وأنها لا تلتفت إلى تحسين حال الفئات المختلفة إلا تحت تأثير الضغط
التفاعل القهرى :
إظهار الشعور . الاحتجاج على حالة أو حادث أو موقف معين
خداع الرؤساء للمرءوسين
مقارنة سيئة للذات بذات أخرى تمتاز عليها
الوعى المفاجئ
الدفع من الخارج :
ظهور قواد معينين . الطائفة « الإصلاحية »
الاستغلال الحزبى
الثورة كحل للمشاكل الداخلية والخارجية خلاف ما ذكر
الرئاسة الخاطئة . جنون العظمة . ارستقراطية القوة
الثورة ضد الأنواع الأخرى من الاضطهاد وفساد النظام الاجتماعى
عدم وجود إيحاء سليم وإقناع منطقى من الرؤساء وعدم الاهتمام بنيل رضا المرءوسين
الثورات الدينية والاحتجاج الطائفى
الميول الفوضوية (هنا نتيجة إيحاء خاطئ للجمهور المسالم من أناس فوضويين)
الفساد الدائرى :
استعمال القوة والطرق القديمة
زيادة التكتل كلما زاد الخوف من السيطرة

بواعث ثانوية

كراهية العمل
النفسيات الوضيعة :

الوشاية .. التجسس للمصلحة الخاصة
إحداث ثورات للحصول على فائدة شخصية
الفوضوية (الحقيقية)

٣ — الانفعالات التى تعمل

انفعالا الخوف والغضب

هذان الانفعالان لا يمكن فصلهما لأن الطبيعة ربطت بينهما منذ بدأت الحياة على وجه هذه الأرض . والغضب الإنسانى يكون مصحوباً (غالباً) بتوقف العمليات النفسية أو الشعورية كما سنرى . وقد يزداد حدة على حساب الخوف ، فإذا زاد الغضب تناقص الخوف ، وإذا تناقص الغضب فقد يحل الخوف محله فى الحدة . ولكن المشاهد هو أن الغضب والخوف غالباً ما يوجدان معاً ، بل قد يكون الغضب علامة من علامات الخوف الداخلى .

وفى المجتمعات المريضة ، حيث تغالى كل طبقة فى مطالبها من الطبقة الأقل منها شأناً ، نجد العكس من ذلك هو الصحيح . وكمثال لهذا أذكر حالة الخادم الذى أهانه سيده إهانة ثارت نفسه عليها ولكنه يخشى عواقب العصيان فيخفى مع ذلك غضبه ، وقد يبدو عليه الامتثال أو الخوف بينما هو يغلى فى داخله من الغضب .

ومهما يكن فإن حالة الغضب تتوقف على قدرة الإنسان على التحكم فى نفسه ، وعلى ميله الطبيعى إلى النضال والمشاكسة ، وعلى حالة التربص السابق ومقدار حب الذات وبدء الشعور بالكرامة ، وعلى طبيعة الفرد أو الطبقة المغضوب عليها أو منها وعلى قوتها ، وعلى السرعة التى يحدث بها الكره أو الغضب ، وعلى عوامل أخرى .

ويمكننا أن نميز ثلاثة أنواع من الغضب :

الغضب المزاح — وفيه يلقى الإنسان غضبه على شخص أو شىء آخر ، عادة يكون أقل مقاومة . ويشاهد هذا فى بعض البلاد حيث يزاح غضب الحكومات من الثوار الحقيقيين إلى غيرهم ممن يعيشون معهم من الأهالى ، وفى الجيوش عند بدء الحرب حيث يزاح غضب السلطات إلى المواطنين كما يبدو فى شدة الأحكام العرفية وجور الأوامر العسكرية والعقوبات الصارمة لمخالفات تافهة — كما لو كان هؤلاء هم

العدو الحقيقى ... ويفسرون ذلك بجمل مبهمة مثل حفظ كرامة الجيش أو حفظ مركز الحكومة ...إلخ .

ولما كان هؤلاء الأهالى لا يمكنهم أن يجدوا من بينهم من يزيحون إليه عواطفهم فإنهم يعيدونها — بالإيعاز — إلى السلطات أو الهيئات السياسية أو الحكومة . ويبدو ذلك فى إلقاء اللوم على الحكومة أو التحدث عن غضب الله من الناس أو عن الانحلال الأخلاقى أو الحزبى أو الدينى ...

الغضب الانفعالى ، أو المصحوب بالتفاعل — هنا يشعر الشخص برغبة شديدة فى العمل بسرعة للتخلص من العاطفة التى تسيطر عليه ، إذ يكون تحمله قد جاوز « الحد الأدنى » أى حد الأمان . ويكون التفاعل فى العادة شديداً . وقد يكون مرضياً (أى ناقصاً أو زائداً عن الطبيعى)

الغضب الانتقامى — وهو شائع جداً فى الخلافات الحزبية . يغذيه الرؤساء وصحافة المعارضة والاجتماعات الخاصة بذلك وفى التحدث بإسهاب عن حوادث مثيرة للشعور . (إبان الحرب الأخيرة برع الحلفاء فى « خلق » قصص عن حوادث مثيرة لتغذية الغضب الذى من هذا النوع) .

وإن تحول الأشخاص من المسالمة إلى العداء هو كما ذكرت مسألة « حد أدنى » Threshold للتحمل الوجدانى . وهذا الحد الأدنى يختلف باختلاف الأشخاص فقد تكفى بضع كلمات جارحة لإثارة شخص إلى حد الغيظ والتفاعل الانتقامى بينما قد يتحمل غيره كثيراً من الإهانات والشتائم قبل أن يصل إلى هذه المرحلة الفاصلة .

وعندما يتملك الغيظ إنساناً فإن تفاعله الانتقامى يكون مرتبطاً بغرض مخرب ، وقد تتوقف راحته فى النهاية على إنزال الأذى بغريمه . وطبيعى أنه كلما زاد شعوره بالإهانة كان التفاعل أعظم فى الشكل والجوهر . ولهذا تحدثوا قديماً عن وجوب خشية غضب الحليم .

سيكولوجية الإيحاء المشترك — غريزة القطيع

رأينا إذن المعنى العاطفى « لاحتجاج الذكر » من خلال تفاعلى الغضب والخوف فى الفرد الواحد (لاحتجاج الذكر معان عاطفية أخرى لا تهمنا فى سيكولوجية الإضراب) وقد سبق أن تحدثت عن هذه الوظيفة النفسية فى الجماعات فى العدد الماضى . وسنبحث الآن وظيفة أخرى لا تقل عنها أهمية هى ما يسمى بغريزة

القطيع ، وتتعلق بميكانيكية التفاعل العاطفي فى الجماعات .

لقد أشرت فى بحث سابق[١] إلى أن سيكولوجية الجماهير هى سيكولوجية المشاعر والعواطف . وإلى أن تفكير الجماعات يكون أقرب إلى اللاشعور المشترك من تفكير الفرد ، بما فيه من عوامل الغدر والحقد الموروث ... إلخ . فمجرد وجود الشخص فى جماعة أو « جمهور » يجعله يفكر وينفعل بشكل يختلف تماماً عنه إذا كان منفرداً . وقد كان لى بون Le Bon أول من ذكر أن الجماهير أقل فى مستوى الذكاء من الفرد إذا كان وحيداً ، وإن الفرد فى الجمهور لا يفكر تفكيراً منطقياً وإنما تلعب به العواطف المتملكة فى تلك الآونة [٢] .

وتبعاً لهذا يكون تفكير الجمهور بمثابة مجموعة من الصور المتعاقبة ، وقد يكون فى رؤوس أفراده مجموعة من الصور التى تتعارض مع بعضها أو التى لا توجد صلة منطقية بينها ، ولهذا قد تسيطر عليه فكرتان متعارضتان فى وقت معاً .

وقد سميت هذه الحالة بغريزة القطيع ، ولكن لما كانت هذه التسمية بيولوجية أكثر منها سيكولوجية وتضم معنى أوسع مما نريد ، فسأكتفى بالإشارة إليها على أنها « سيكولوجية الإيحاء المشترك » .

والواقع أنه توجد حالة شبيهة بالتحول Transference بين أفراد الجمهور ، بحيث أن أية كلمة من أى فرد من أفراد ذلك الجمهور تقابل بالثقة العمياء ، وتحت تأثير الحالة الموجودة فعلا ينقلب أى شك إلى يقين بمجرد ظهوره . ويفسر براون هذا بأنه فى الجماعات المتكتلة يحدث انشقاق نسبى فى الشعور ، بمعنى أنه يوجد ميل إلى التراجع والوقوف عند مرحلة بدائية فى السلوك والعمل ... مع إيقاف كلى أو جزئى للعمليات الفكرية والمنطقية وإحلال الوظائف الوجدانية محلها [٣] . وهو لا يخرج عن أنه نوع من الشرح للتفسير الذى سبق أن قدمه يونج .

ويؤكد تروتر [٤] أن زيادة حساسية الفرد ازملائه (من أفراد الجمهور) كما سبق وصفه تقابلها زيادة فى المقاومة لكل فكرة أو إيحاء مضاد . وهذا صحيح ، فإذا كان الغالب فى التأثير على المجموع هو الغضب) أو مزيج من الخوف والغضب (فإنه

---

(١) محمود الراوى : (القتل السياسى) — مجلة علم النفس ، عدد يونيو ١٩٤٧ ص. ٢١

(٢) G. Le Bon : Psychologie des Foules
(النسخة التى بين ايدينا قديمة غير معروفة التاريخ)

(٣) W. Brown: Psychology and Psychotherapy, p 142, 1944

(٤) W. Trotter: Instinct of the Herd In Peace & War, 1916

من الصعب بل من المستحيل على الشخص أو الفريق المغضوب عليه أن يبرر موقفه حتى ولوكان على حق ، إذ يجب أن يكون هذا التبرير من شخص من المجموع أو شخص خارج يستطيع أن يحوز ثقة المجموع .

وهذا هو السبب فى فشل الدعاية التى تقوم بها الولايات المتحدة الآن فى اليونان ضد دول الكتلة الشرقية ، إذ أن غالبية المواطنين هناك قد تكتلوا فعلا وتشبعوا بالإيحاء الآخر وأصبحوا يوقنون بأن الولايات المتحدة ليست إلا المستعمر الغاصب الجشع ...

تفاعل الجماهير

ليس من الضرورى أن يوجد مؤثر واحد قوى ليسبب الاندفاع العاطفى فى المجموع ، بل قد يكفى أن يكون هناك « جو » مهيأ ، أو عدة مؤثرات صغيرة يشترك كل منها فى تجهيز المسرح للمؤثر الذى يبدو للرائى العادى سبباً أساسياً — رغم أنه قد يكون أصغر السلسة شأناً ، ويزيد فى سرعة تهيئة الجو حالة التربص التى سبق وصفها فى الطبقات الثائرة فى العدد الماضى .

أما طبيعة الاندفاع العاطفى فتختلف طبعاً باختلاف المؤثر ، ولكن الغالب أن يكون الاندفاع بعيداً عن المنطق بسبب الحالة الشبيهة بالبارانويا [1] المسيطرة على الجماهير ، وعادة يكون بدون غرض إلا إذا كان هناك من يقود حركة الجمهور .

وكمثال للمدى الذى تصل إليه هذه الأعمال الانفعالية فى بعدها عن المعقول ما حدث فى الولايات المتحدة منذ سنوات . إذ قبض على زنجى بتهمة مهاجمته لفتاة بيضاء تمهيداً للمحاكمة الصورية ، وبعد إدخاله السجن بساعات تقدمت حفنة من البيض تريد انتزاعه للتمثيل به ، فأخرج المتهم وأودع خزانة كبيرة من الفولاذ فى قاعة المحكمة خوفاً من انتقام الجمهور الثائر ، فلما لم يتمكن أفراده من فتح الخزانة أحرقوا دار المحكمة ثم حطموا خراطيم الحريق حتى يستحيل إنقاذ الدار وما فيها .

ومن هنا يتضح أن الخطر فى حركات الجماهير المنفعلة إنما يوجد فى نوع الفكرة

---

(١) حالة شبيهة بالبارانويا ذات التوهمات الاضطهادية حيث يعتقد أفراد الجمهور أنهم محاطون بالأعداء وأن البيئة أو الفريق المضاد يريد بهم شرا ، وأن حركتهم هي الطريق الوحيد للحصول على الراحة والهدوء . . . الخ

المسيطرة عليهم فى ذلك الوقت ، وإمكان قيادتهم باللين أو بالشدة ، وفى طريق المعقول أو غير المعقول . فالجمهور الثـائر مقتنع تمام الاقتناع بأحقية العمل الذى يقوم به . وأنصاف العقلاء موجودون دائماً بين أفراد الجماهير ، وهؤلاء أحياناً ما يكونون السبب فى الخراب الذى يحل بالجمهور أو بالمجتمع بنشرهم إشاعات أو أوهاماً يسرع الجمهور فى تقبلها وهضمها .

وقد قدمت فى الصحائف السابقة تصنيفاً يشمل أهم الدوافع إلى الثورة أو الإضراب ، وأغلبها كما نرى تؤكد لنا أهمية الذات أو تفاعل الذات غير المتبيئة ، ويكون الإضراب أو الثورة محاولة للحصول على تكييف البيئة بالقوة .

ولكى تنجح أى حركة من حركات التمرد ، سواء كانت تحريرية أو انتقامية أو إصلاحية ، يجب أن يكون فيها زعيم أو قائد يستطيع أن يفيد من الاستجابة العاطفية فى جمهوره ويوجهه فى الطريق الصحيح — أو بمعنى آخر يفكر لجمهوره حيث فقد الجمهور القدرة على التفكير . وباستطاعته أن يستفيد من كل العواطف التى سبق بحثها ومن النواحى البيولوجية لاحتجاج الذكر بل ومن حالة شبه البارانويا كذلك فى تجهيز أفراد جمهوره للنضال . فإذا انعدم مثل هذا العقل المفكر اختفى المنطق من العمل الانفعالى وأصبح الجمهور كقطيع من الحيوانات المتوحشة .

التكتل وتنظيم القيادة

نتيجة الاتحاد — عندما يبدأ الجمهور الغاضب فى عمله العدائى فعلا ، وبعد أن يتخلص من سيطرة العقل ويقع تحت تأثير الحالة الشبيهة بالبارانويا ، يسرى فى النفوس اعتقاد بقوة الاتحاد ، ويثق كل فرد بأن جمهور الثائرين قادر على كل شىء وأنه باستطاعتهم — معاً — قلب النظام أو الحكومة أو الهيئة أو الحالة أو البيئة التى ثاروا ضدها . وهكذا نجد أنه من الممكن أن تنقلب الحالة الشبيهة بالبارانويات ذات التوهمات الاضطهادية إلى حالة مماثلة ولكن بتوهمات العظمة والقدرة اللانهائية .

والقائد المحنك — فى هذه الظروف — هو الذى يزج بجمهوره إلى الميدان بعد أن يجعلهم مشبعين بمزيج من الكراهية والاعتداد الزائد بالنفس . وهذا الاعتداد شعور هام اذ قد ينقلب سريعاً إلى الحـالة المصحوبة بتوهمات العظمة وبذا تتضاعف قدرة الفريق على النضال والمقاومة . وهو ما يمكن تسميته بالحالة المعنوية عند الثوار .

ومن المعتاد فى الانقلابات الداخلية أن يكون الزعيم واحداً من الجماعة الثائرة ، يمتاز عنهم فى ناحية ، أو فى عدة نواح . ولم يسبق أن مكنته بيئه من الجنوح إلى البيئة التى تصلح له . ولنصور هذا بالمثال الآتى :

ذكرت أن من مصلحة الطبقة الممتازة (مثلا أصحاب رءوس الأموال الكبيرة) منع الطبقة المتوسطة من الوصول إلى مستوى أعلى مما هى فيه (بمحاربة أصحاب رءوس الأموال المتوسطة أو الصغيرة) . أما المعدمون من الناس فهم المجموعة التى تم تبيؤها . وأما الشخص ذو الثروة المتوسطة فيجد نفسه فى مركز محرج . فلا هو قادر على أن يعيش فى مستوى الشخص العادى الفقير ولا هو بمستطيع تحسين مركزه للوصول إلى مستوى طبقة الأغنياء .

وأمثال هذا الشخص هم الذين تتطاير منهم شظايا الإيحاء بالتمرد . وسط أفراد الجمهور العادى . ومقدرتهم لا تتوقف على قيادتهم للجماهير فى صفوف تحمل السلاح وإنما على قيادتهم لعواطف الجماهير .

وقد قال هتلر : « إن الزعيم هو الذى يستطيع أن يحرك الشعوب »(١) .

وسبق أن تحدثت عن خصائص الزعيم فى مقالى السابق عن القتل السياسى(٢) .

طول مدة الثورة — إن أكبر الثورات تأثيراً هى التى يسبقها تمهيد وتجهيز طويل ثم تبدأ فجأة وتنتهى بسرعة . وهذا شىء من الصعوبة بمكان . وإذا طالت مدة الثورة عن حد ما (يختلف باختلاف استعداد الجماهير الثائرة) فإن قوتها تتناقص بسرعة أو تزول ، حيث تتملك أفراد الجمهور حالة من الضيق والجهد والانقباض ثم عدم الاهتمام ، ولا يعود السيئ أو الحسن يؤثر فى نفوسهم . وهنا يمكن اعتبار الحركة التمردية مقضياً عليها بالفشل حتما .

وهذه الظاهرة بالذات هى التى تستفيد منها بعض الحكومات للتغلب على روح الإضراب فى أفراد المجموع الذين تقوم عليهم مرافق اجتماعية هامة ، فإذا ما أضرب هؤلاء وبات إضرابهم يهدد هذه المرافق الاجتماعية أعطتهم الجهة المختصة « وعداً » بإجابة مطالبهم . ومن الطبيعى أن يسكنوا بعد هذا . فإذا ما انقضى على « الوعد » وقت طويل دون أن يتحقق وعادوا إلى الإضراب أخذوا وعداً آخر هو بمثابة الجرعة المخدرة

---

(١) "Fuhrer sein ist Massen in Bewegung setzen."

(٢) مجلة علم النفس — عدد نوفمبر ١٩٤٧

إلى حين يأتى الوقت الذى تموت فيه « الروح المعنوية » ويتم القضاء التام على حركة الإضراب فى هذه الطبقة ، أو ينتبهون فجأة إلى الغرض الحقيقى من المناورة .

وثم طريقة أخرى فى إضراب الطلبة والعمال هى إغلاق المدارس أو أبواب العمل لمدد طويلة يعود الأفراد بعدها إلى العمل وقد فتر حماسهم وخبا عندهم الميل إلى الإضراب .

سيكولوجية الفرد فى النضال

إن أهم عنصر فى نفسية الفرد العادى الثائر هو الخوف فى صورة من صوره . فمن الطبيعى ألا يترك الإضراب أو التظاهر أو الثورة وشأنها وإنما تقاومها قوات النظام والأمن بمختلف الطرق . والواقع أن الثائر من أفراد الجمهور يتقدم فى حركته وهو تحت عاملين ، الأول هو الدافع القوى الذى يستحثه على التقدم فى حركته التمردية والثانى هو الخوف من عاقبة التمرد . فهو لا بد يعرف سلفاً بأنه سيجد مقاومة مستمرة من حفظة النظام . وعلى قوة هذين العاملين يتوقف استمراره فى النضال أو غير ذلك .

فالعامل أو الصانع الذى يثور رغبة فى رد عدوان يراد به حرمانه من أجره أو إنقاص الأجر الذى لا يكاد يكفى أفراد أسرته ، يكون مدفوعاً بمؤثر قوى قد يفوق فى القوة خوفه من رصاص البنادق . أما الجماهير المأجورة والمتجمعة بدون ضغط الظرف المشترك (كما يحدث فى الحملات الانتخابية مثلا) فقد تكفى مجرد رؤية رجال البوليس لكى يتفرق أفرادها .

ويحسن بنا أن نقسم تفاعل الفرد فى النضال إلى ثلاث مراحل :

(١) عندما تختمر فكرة النضال والثورة على الحاضر .

(٢) عند بدء التقاء الجمهور الثائر برجال البوليس .

(٣) عند نهاية الالتحام .

(١) بدء الثورة — ذكرت أنه تحت تأثير الحالة الشبيهة بالبارانويا يسرى فى نفوس الأفراد اعتقاد بأنهم قادرون على كل شىء وأن باستطاعتهم تنفيذ كل ما يريدونه . وتحت تأثير هذه اللحظة وقوة الإيحاء المشترك يتأهب كل فرد لبذل أقصى ما يمكنه فى سبيل الغرض المراد تحقيقه — حتى الحياة . ولعل الذين اشتركوا فى الحرب ولاحظوا كيف كانت تتقد فيهم الحماسة بمجرد انتظامهم فى الصفوف وسماعهم الموسيقى الحربية يجدون من السهل فهم ما أعنيه .

فى هذه المرحلة تنعدم من الوجود فكرة النكوص . وقد يكون استعداد الجمهور الثائر من الوجهة المعنوية أكثر من استعداده المادى بمراحل . بل إن الأفراد قد لا يفكرون فى افتقارهم إلى السلاح أو أدوات الدفاع إذ كما قلت يكونون تحت تأثير الاعتقاد بالقدرة على كل شىء أو فى حالة تشبه تفكير الطفل الصغير بأن كل ما يراه أمامه يصبح ملكه بدون منازع .

(٢) الالتحام مع رجال البوليس — فى بدء مرحلة الالتحام يكون « حماس » الأفراد فى الجمهور الثائر على أشده . وهذه المرحلة — إذا كان الثوار قد تم تجهيزهم نفسياً للنضال — هى أقسى مرحلة أمام رجال البوليس . إذ يندفع فيها الثائر بكل الاحتياطى الذى لديه من الطاقه النفسية أو المادية . ويتصرف باحتراس وحرص وتحفظ . ويصبح رقيباً على حركات نفسه ليكون تصرفه دقيقاً وبدون إهدار لجهد هو فى حاجة إليه . والغرض من هذا طبعاً هو الاحتفاظ بكل طاقة للغرض الهام وحده وهو الغرض الذى يسعى إليه الجمهور . بل إن الفرد قد يبالغ فى ذلك أملا منه فى ضمان النجاح والنصر .

وكلما ازداد الحماس والغضب (معاً) زاد تفاعل الفرد فى هذا الاتجاه (بالمبالغة فى الهجوم أو النضال أو العناد) حتى لقد يقضى بذلك على كل فكرة منظمة تم الاتفاق عليها . وتصبح حركات الجمهور أقل دقة ورصانة وأقرب إلى العمل المهوش . وتضيع الطاقة البشرية فى مجهود لا فائدة فيه .

ويستولى على الفرد بعض القلق . ولكن ما زال اهتمامه شديداً وما زال حماسه زائداً . ولكن كلما زاد تهوش الحركة الثورية ورأى زملاءه يتصرفون بدون ترتيب تسرب الشك إلى نفسه . وداخله خوف مبهم من الإخفاق فى النهاية . ولكنه يحاول ضبط نفسه وتكلف الهدوء ويتغلب على خوفه .

(٣) هذه هى المرحلة الأخيرة أو مرحلة التفاعل العاطفى البحت — فنظراً لحصر انتباه الفرد فى مجال ضيق (النضال) تظهر له أخطاء زملائه حوله بشكل مجسم . وقد يحاول هو أن يعمل للتغلب على هذا . ويزداد بذلك قلقه ويستولى عليه الاضطراب . فيقف تيار التفكير المنظم ويتضاءل الغرض المشترك الذى يدافع عنه مع زملائه . وتبدأ الذات — التى كانت حتى الآن مختفية وراء حجاب الغرض المشترك والمثل العليا ومصلحة المجموع ... الخ — فى الظهور بقوة . ليس من الناحية الأنانية المجردة وإنما تكون مصحوبة بالشعور بعدم الكفاية .

وكلما زادت سيطرة رجال الأمن على الموقف زادت هذه الوظائف النفسية ظهوراً ويتحول القلق والاضطراب إلى ذعر حقيقى ، مع ردع الوظائف النفسية والفكرية العادية والافتقار إلى القدرة على النضال . وهنا قد يولى الفرد هارباً أو يقع فى نوبة ذعر شبيهة بالهستيريا أو قد يغشى عليه إذا كان ضعيف التحمل .

والمراحل الثلاث كما قلت ليس من الضرورى أن تتم جميعاً فى كل عراك بين البوليس وجمهور الثائرين . فقد يتفرق الجمهور جميعه عند بدء المرحلة الثانية ، أو عند نهايتها . وهذا كله يتوقف على الحالة النفسية وعلى الإيحاء الذى يكون متملكاً من الأفراد

ونلاحظ هنا أن الخوف يأتى متأخراً (أواخر المرحلة الثانية) ، ولذلك لأن الفرد يشعر بالاطمئنان النسبى لوجوده مع أفراد الجمهور الذى يشاركه أفراده ، كما أنه يعرف لنفسه هدفاً يسعى إليه ويشعر أنه غير معرض للإصابة المباشرة .

٤ — علاج الإضراب والثورة

العلاج الخاطئ — خطر التفاعل

أقصد بالعلاج الخاطئ العلاج بالعقاب وحده . والمفروض فى العقاب ثلاث نقط : (١) إصلاح روح التمرد (٢) حماية المجتمع (٣) ردع الآخرين

أما عن إصلاح روح التمرد فهذا شىء نظرى لا وجود له فى الحقيقة ، فما من عقاب يوجه إلى إنسان طبيعى عاقل بدون أن يقابله نوع من التفاعل فى نفس هذا الإنسان . أما عن حماية المجتمع فقد يكون ذلك صحيحاً إلا أن تأثيره مؤقت . فلو فرض أن طائفة من العمال مثلا قد أضربوا فأخذوا جميعاً وأودعوا السجن خوفاً من سريان العدوى إلى طوائف أخرى ، فإن حماية المجموع لا تستمر إلى الأبد لأن هؤلاء العمال المودعين السجن لا بد سيخرجون يوماً ليواجهوا مشاكل أقسى مما ثاروا من أجلها . فقد يخرجون من السجن ليواجهوا مشكلة البطالة بينما تكون ثورتهم قبل ذلك من أجل تحسين الأجور .

والطبيعة البشرية يمكن تشبيهها بالزمبرك . لا يمكن الضغط عليه باليد دون أن يرتد . وكلما ازداد الضغط عليه لإنقاص طوله كلما ذادت القوة التى يحاول بها أن يرتد كما كان ، مع فارق آخر ، هو أن الإنسان فى عملية التفاعل قد يزيد عن الطبيعى قد يكون تأثيره فى المجموع أعمق من الأثر الذى أريد فى الأصل عقابه .

كما أن المعاملة القاسية تزيد من انعزال الطبقات المضربة أو الثائرة وانطوائها ، وتكون عاملا فى زيادة اتحادهم وتماسكهم . وهذا يزيد من ثبوت المقاومة ضد الجبهة الأخرى المسيطرة ، وتقوى بذلك الطبقة المضربة فى شدة تفاعلها حيال السيطرة ، بل وقد تبالغ فى شدة التفاعل إلى حد الخطر .

واستعمال القوة يزيد السوء سوءاً لأنه يجعل الجماهير فى حالة خوف وانزعاج أكثر على حريتهم وأرزاقهم — سواء المضربين أو الثائرين أو غيرهم — وعلى مركزهم كمواطنين . فإن القوة لا تعرف التمييز ، وإذا بدئ فى استخدامها فإن كثيراً من المسالمين يؤخذون بالطبيعة بجريرة الثائرين . وواضح من هذا أن جو عدم الطمأنينة الناشئ عن تلك الحالة يجعل الجماهير المسالمة أسرع قابلية للتكيف نحو الثورة .

ولعل أظهر مثال على التفاعل ضد العقاب الصارم هو المجرم الخطير كيرتن الألمانى ، فقد قال بنفسه كيف ازداد سخطه على المجتمع وكيف أنه كان يتعمق فى الإجرام كلما دخل السجن . لقد حكم عليه بالسجن لأول مرة بسبب السرقة ، وبعد أن خرج عاد إليه بتهمة الحريق العمد ، فلما خرج مرة أخرى بدأ تجاربه فى القتل ... وقد عزا « مهنة » الإجرام إلى رغبته البسيطة فى الانتقام لنفسه ولآلامه التى عاناها فى السجن .

وفى كل الحالات التى يكون فيها العقاب متناسباً أو زائداً عن اللازم لعملية خرق النظام نجد أننا لم نقم بأية محاولة جدية للإصلاح . يجب أن نبحث عن أصل الداء ونجهز البيئة الصالحة لإعادة (أو تسهيل) التبيؤ لدى الأفراد بإزالة العوامل التى تزيد من حالة التوتر والثورة على النظام الموجود — سواء كانت عوامل خارجية أو عوامل نفسية أو خليطاً من الإثنين .

« طالما عوقب المسيئون طبقاً لنصوص نظرية بدلا من دراستهم علمياً فإن النتائج حتما ستبقى ناقصة كما هى — كما لو كان الأطباء جميعاً يصفون عشرين يوماً من أقراص الإسبرين لعلاج مرض فى الصدر ، أو ستة شهور من زيت الخروع لعلاج السرطان ! »(١) .

فشل الإقناع والإيحاء والضغط — سنرى فى الصحائف التالية أفضل الطرق للإقناع والإيحاء والضغط فى قيادة الجماهير . ولكن يجب أن أشير هنا إلى ما يؤكده

(١) K.A. Menninger : The Human Mind, p. 430, 1931

جميع الأطباء النفسيين فى معالجة مرضاهم . من أن هذه العمليات بعضها أو جميعها تفشل إذا ما كانت فى نفس المريض عوامل داخلية أو خارجية أو دوافع لا شعورية تتعارض معها . وقد سبق التمثيل لهذا فى العدد الماضى ، حيث ذكرت أنه من العبث محاولة إقناع الشخص بأنه مطمئن ورابط الجأش إذا كان فعلا يرتعد من الخوف .

ولعل أقدر الناس على استخدام الإقناع والإيحاء والضغط أو مزيج منها هم الأطباء النفسيون . ولو أن حكومة ما استطاعت استخدامها كما يجب أو قريباً مما يجب لأمكن منع عدد كبير من الثورات والاضطرابات . والمشاهد هو أن جميع الحكومات — بلا استثناء — فشلت تماماً فى استخدامها جميعاً إلى الحد المرغوب .

وفى عدد من البلاد تعتقد السلطة التنفيذية أو الطبقات المسيطرة فى ارستقراطية القوة ، وأنه مادام البعض أقوى من البعض يجب أن يتحكم الأقوياء فى الضعفاء ، وأن الجماهير يجب أن تسام كالبهائم ، وتخدع وتستغل إلى أقصى حدود الاستغلال .

ولا شك أن السلطة التنفيذية فى عدد قليل من البلدان مصابة بحالة شبيهة بالبارانويا ذات التوهمات الاضطهادية ، وقد تعادل فى قوتها الحالة التى تسيطر على الجماهير الثائرة فى أشد مراحل ثورتها . ففى كل من هذه البلدان عداء نحو طبقات معينة من الشعب . وهذا العداء المستحكم — كما فى حالة البارانويا — يلقى بطريقة الإيعاز على أفراد هذا الشعب أو على الأقل بعض الأفراد ، فتتوهم السلطة أن الشعب يكيد لها العداء أو أنه يريد إزالتها من الوجود — سواء حقاً أو بغير حق . وقد يدفعها ذلك إلى القيام بأعمال فى منتهى القسوة .

هذا بالذات ينطبق على الاستعمار الفرنسى فى لبنان قبيل ثورة ١٩٤٣ ، وعلى الإنجليز فى بعض البلاد التى يحتلونها ، مثل مصر فى ١٩٣٦ والعراق إبان الثورة الأخيرة .

إن الخطر فى هذه الحالة هو أن السلطة تربأ بنفسها أن تتعاون ، ولا تريد أن تعترف بالترضية عند حل أية مشكلة ، اعتقاداً منها أن الترضية فيها بعض التنازل والدلالة على الضعف ! ! . وعلى ذلك فيجب (فى منطقها) معالجة كل شىء بالقوة الكافية للقضاء عليه تماماً .

وليس هناك داع للتوسع فى بحث ما فى هذا الرأى من خطأ . ولعل بريطانيا

هى « السلطة » الوحيدة التى عرفت بالخبرة أن المصلحة هى فى الترضية القليلة كلما وجدت أن لحظة الخطر قد دنت كثيراً (١) .

فالواقع أن حالة شبه البارانويا هى التى تمنع « فى الجماعات المتكتلة » الثقة أو تقبل الإيحاء المضاد . وأحسن طريقة لقيادة مثل هذه المجاميع الثائرة هى الخضوع لإرادتها والاستفادة من هذا الخضوع للسيطرة على عقولهم من جديد وإعادة دفة القيادة من جهة أخرى .

يجب ألا نقع فى الخطأ الذى وقع فيه هتلر عند ما قال : « عندنا ١٠٠٠٠٠ مفكر علينا ألا نأبه لهم ، حيث أن لدينا سبعين مليوناً من الناس » .

هذا القول المتناهى فى الدكتاتورية والقسوة يدلنا كيف أن هذا الرجل ما كان ليأبه لأفكار الإصلاح طالما نفذ رأيه هو وحده ! فما كان يعرف معنى التراجع حتى ولو كان يحس بأنه يسير فى طريق الخطأ .

الفوضويون والحزبية المتطرفه — فى كل بلد يوجد عدد من الفوضويين والحزبيين المتطرفين . وهؤلاء رغم أقليتهم يتسببون أحياناً فى ضرر شديد للمجموع . والوقاية هنا خير من العلاج إلا إذا أمكن القضاء على القواد الفوضويين فقط . وهذا متعذر دائما ويقرب من المستحيل .

أما الوقاية فى الدعاية المبنية على الصدق ، فإن الجماهير غالباً تكون ضحية التغرير ، ولا يجب أخذهم بجريرة المجرم بل يجب الحصول على ثقتهم واحترامهم ، وهما ثقة واحترام يستحقان عناء المحافظة عليهما .

العلاج المثمر

(١) رأينا إذن أن الدعاية الصادقة هى أول وأهم أداة بيد الطبقة أو الطبقات المسيطرة ، فهى كفيلة بالحصول على ثقة الشعوب ووقف التأثيرات الفكرية الضارة .

على السلطات أن توفر أصول الصحة النفسية فى شعوبها ، فبدون ذلك لا يمكن للشعوب أن تسير ، ولا للحكومات أن تسير .

إن الولايات المتحدة لا يمكن لنفوذ ما أن يغير النظام الاجتماعى فيها وذلك

(٢) علينا ان نفرق بين سياسة بريطانية أمام خطر التفاعل المباشر ، وبين عملية الإيعاز السابق ذكرها . فالسياسة الاولى تعرفها بريطانيا جيدا وتطبقها باستمرار ، أما العملية الاخيرة فقد حدثت فى ظروف معينة سردت أمثلة لبعضها ، وليست سياسة سائرة .

لسبب واحد هو أن الشخص الأمريكى العادى واثق من أن حياته مع زميله فى المجتمع هى حياة اجتماعية مثالية ، وأنه لا مجال للبحث عن حياة أحسن ، فهو كلما قارن نفسه بزملائه فى الشعوب الأخرى رأى المقارنة فى صالحه باستمرار .

والدعاية الحكومية فى الخارج ذات نفوذ هائل وتتخذ صوراً متعددة عن طريق الصحافة والخيالة والراديو بل وبداخل أختام البريد على الرسائل . وبكل هذه الطرق ، وبلغة غامضة خاصة تكرر بشكل مدروس ، تبرر الحكومة موقفها كل ما تعمل — وغالباً ما تنال ثقة الشعب ، فهذه المواقف أو المصالح تصاغ فى قالب خاص بحيث أن خير المجموع أو الوطن ، وأصول الدين والتمسك به ، والروح العلمية والاجتماعية ، والحرية الشخصية وغير ذلك ، تصبح كلها مرتبطة ومتوقفة على تحقيق هذه المصالح التى تجرى وراءها الحكومة .

ولا جدال فى أن الدعاية الحكومية عندنا فى مصر ناقصة نقصاً شديداً ، وهو أمر يؤسف له كل الأسف ، من عدة وجوه .

(٢) وفى مقدور السلطة أن تستغل الإقناع والإيحاء والضغط معاً ، إذا كانت تعرف كيف تستعملها ومتى تستعمل أحدها دون الآخرين .

أما الإقناع فهو مهمة الزعماء والرجال المبرزين فى البلدة ، وأقصد بالزعماء والرجال المبرزين أولئك الذين يثق بهم جمهور المستمعين . فمن العبث أن يحاول زعيم إقناع حزب معارض ، على أن فى إمكانه أن يقنعهم إذا أرسل إليهم شخصية بارزة يثقون فيها أو فى حيادها أو فى إخلاصها . ولعل رجال العلم هم أسرع الناس بالحصول على تلك الثقة .

والرئيس الذى لا يسارع بالحصول على الثقة من أجل السيطرة على الجماهير والقضاء على حالة الفزع والضيق يكون قد فشل فشلا ذريعاً .

ومحاولة الحصول على الثقة تصبح غير محققة أو غير ممكنة إذا بدأت بعد أن يكون الجمهور قد تكتل وتنظم بشكل نهائى وأصبح على حذر شديد من أى إيحاء مضاد يقصد به الخداع أو التهويش . وماكدوجال يؤكد أن هذا النوع من الجماهير المنظمة يكون قد تخلص من سيطرة الغرائز البدائية وزال عنده ردع العاطفة لعملية التفكير السليم .

وأما الإيحاء فيكون عن طريقة الكتابة ، يقوم به الصحفيون وأدوات النشر والثقافة التى تسيطر عليها الحكومة . ويجب أن يكون « إيحاء » صحياً سهل الهضم

يمتزج فيه المنطق العقلى بالقيادة البطيئة ، ويستغل فيه تأكيد الذات لتثبيت دعائم الإيحاء فى النفوس (أى أن الكاتب ينبه الأفراد بطريق غير مباشر إلى أن التفافهم حول حكومتهم أو حزب كذا يعود عليهم بفوائد ذاتية أو بالخير كأفراد .

وهذا هو الطريق الذى تسلكه الدعاية الشيوعية فى كل أنحاء العالم فى هذه الأيام . وهو السبب فى اتخاذها ذلك المظهر البراق أمام رجل الشارع .

بقى الضغط ، وهو من اختصاص السلطة التنفيذية ومصالح الحكومة . ولايجب أن يتخذ صورة الكبت خوفاً من التفاعل ، بل يكون بصورة التذكير المستمر بالواجب فى هذا استغلال للضغط الأدبى من داخل الفرد — وهو أقوى وأبعد أثراً من ضغط القوة أو الإرهاب .

وفى مقدور الحكومة أيضاً أن تستخدم ما فى يدها من سلطة القانون وإرشاد القضاء إلى مواطن الخطر الحقيقى لتقاوم الفوضويين وعناصر التطرف الزائد ، مقاومة فى حدود المعقول .

وإذا استعمل الضغط بسند من القانون فيستحسن أن يكون ذلك فى العلانية وليس فى السر ، حتى لا تستولى على أذهان الجمهور شكوك وأوهام لا داعى لها .

(٣) التنوير وحرية الرأى — لا جدال فى أن إيقاظ الروح المعنوية فى الجمهور وتمكين الناس من إظهار شعورهم وعواطفهم أولا بأول ، هو صمام الأمان الذى تتبدد فيه العواطف فى دفعات صغيرة ليست بذات خطر . أما إذا قاست من الكبت فإنها « تتراكم » ولا بد أن تحتاج للظهور بشدة فى حركة تعويض ، تضاد السلم الاجتماعى أو النظام العام فى الغالب (١) .

«ويبدو محققاً أن الطريق الوحيد لتخفيف النهاية المفجعة لنظام فروق الطبقات هو منع هذا النظام من أن يكون جافاً صلباً وذلك باستخدام سياسة التنوير العام وحرية الرأى ، وجعل حرية الانتخاب للجميع بلااستثناء . فإن حرية الرأى رغم أنها لا تقوم ضماناً ضد نضال الطبقات يمكنها — نظرياً على الأقل — أن تكون أداة لاستقرار نوع من التعادل الديناميكى الذاتى يعوض عن التفاوت فى المصالح الأخرى »(٢) .

---

(١) يقولون إن روسيا السوفيتية لا تحدث فيها اضطرابات او ثورات لأن حرية التظاهر فى الشوارع مكفولة بواسطة الدستور

(٢) J. Reinhardt : Social Psychology, p, 333, 1938

(٤) تأمين الناس على العمل والأجر — لقد أبان باكى فى كتابه عن البطالة[١] كيف أن القيم الاجتماعية الأساسية التى من أجلها يعيش الرجل العصرى العادى ويناضل فى المجتمع الحديث هى قيمة العمل والأجر وضمانهما .

وفى الحقيقة يمكن أن يسبب الخوف من فقد العمل (وبالتالى الخوف من عدم الحصول على القوت) اضطراباً عميقاً دائماً فى نفسية العامل ويجعله فى حالة مستمرة من توقع فاجعة البطالة وفقد العمل والحرمان . وهذا الخوف نفسه ، كما يقول باكى « هو الذى يتوقف عليه سلوكه نحو الشباب والكهولة والنساء والمصانع والغرباء وأصحاب رءوس الأموال وكل شىء » .

(٥) معاملة الموهوبين — رأينا فى العدد الماضى كيف أن التذمر يبدأ فى الطبقات المتوسطة التى تيأس من تحسن الحال إذا ما وجدت أن نضالها الصادق فى سبيل المجتمع أو فى سبيل التقدم يضيع بجانب تزلف المتزلفين . ومن المؤكد أن عدد الموهوبين المتذمرين فى الشرق عموماً يزداد يوماً عن يوم . بل الواقع أننا لسنا فى حاجة إلى رجال مفكرين بقدر ما نحن فى حاجة إلى العناية بالمفكرين الذين لا يلاقون من مواطنيهم سوى الإهمال وعدم الاكتراث . كثيراً ما يحدث أن يتقدم مفكر باقتراح أو شىء جديد إلى مواطنيه فيقابل بالزراية والاستنكار ، ثم يقابل نفس هذا الاقتراح أو الشىء بالحماس والاعتبار عندما يتقدم به بعد ذلك بوقت طويل بعض الأجانب . إن هذه الظاهرة صعبة التعليل . ولعلنا لم ننس كيف أن ماركونى لم يجد من مواطنيه اهتماماً باختراعه فلما ذهب به إلى دولة أخرى عومل المعاملة التى تليق بنبوغه ، ثم عادت إيطاليا بعد ذلك بأعوام تفخر أن أنجبت مثل هذا العبقرى !

(٦) التحفظ حيال استخدام العقاب — إن عملية التشتيت التى تقوم بها السلطات لتفرقة أعضاء المجموع الثائر تفلح حقاً فى إيقاف الإضراب أو الثورة بشكل مباشر ، ولكنها لا تزيل الأسس النفسية التى قامت عليها حركة الإضراب أو الثورة . وبالعكس هى تزيد من قوة التفاعل النفسانى ضد السلطات بدون داع — حتى ولو لم تكن هى السبب (السلطات) فى قيام حركة التذمر الأولى .

وعملية العقاب أو الردع تصبح بدون فائدة ما دام الجمهور الثائر يحس أو يوقن

(١) E. Bakke : The Unemployed Man, p. 2, 1934

بأنه ليس هو المخطئ وإنما المخطئ فئة أخرى . فإذا عوقب أفراده قد ينقلب إحساسهم فيشعرون أن المخطئين هم الذين يعاقبونهم . وأنهم يهاجمون الحركة للقضاء عليها في الوقت الذى يعملون فيه ما يزيد حدتها (استثارتهم واستفزازهم بالعقاب).

وقد أيقن كثير من الباحثين المعاصرين بصحة وجهة النظر هذه ، فهذا تافت يؤكد أن « عقاب مجرمى الحرب ... سيزيد كثيراً من احتمال الحرب العالمية الثالثة » .

وهو يقول : « العقاب يعتبر ساقطاً وفاشلا أيضاً إذا كان العذاب الذى يسببه (للمعاقب) أقل من حماس الجماهير وشدة استحسانهم للعمل الإجرامى (أى الأعمال التى قام بها مجرمو الحرب أثناء وجودهم فى الحكم) ، أو إذا كان من يقوم بالعقاب عصبة متآمرة ، أو إذا كان العقاب يحمل فى ثناياه التعبير عن كراهة المنتقم وحقده »[١] .

(٧) ويقول إدوارد جلوفر : « يجب أن يفهم الحكام وممثوا الدول فى السلك السياسى أنفسهم ودوافعهم الخفية . والتحليل — إلى حد ما — يفيدهم كثيراً »[٢] .

(٨) إن استخدام الأطباء النفسيين لتحليل نفسيات أفراد المجموع والبحث عن منشأ العلة فى كل الحالات يعتبر مطلباً أساسياً لا يمكننا أن نطالب به هنا ونحن بعد فى هذه المرحلة دون أن نقابل بالسخرية أو الاستنكار ... ولكن الواقع أن البحث النفسانى يمكن أن يعمل الكثير من أجل معرفة أسباب التذمر المباشرة وملافاتها بعملية « توفيق » . ولعل أفضل طريقة لذلك هى استخدام « مستشارين نفسانيين » فى وظائف الحكومة التى ترتبط ارتباطاً هاماً بالجمهور ، وفى الوزارات والمصالح التى تتأثر بتفاعلات أفراد الشعب .

إنهم يستخدمون مستشارين فنيين حتى فى بعض المصالح التى لا تحتاج إلى طول استشارة فكيف لا يستخدم مستشارون نفسانيون والمجتمع إليهم أحوج ما يكون ؟

محمود الراوى

(١) D.R. Taft : "Will Execution of Nazi War Criminals Be Ineffective? - American Socoiological Review, Aug. 1946.

(٢) E. Glover : War, Sadism and Pacifism, 1933